موتى ينقذون الأحياء

محمد مسعود جاد

كما يلهو الماء بأقدام السائرين في بحيرة متجمدة، كان يشعر أن الريح تتغذى على أعصابه كلما عوت حوله عندما التف عليه المساء، فكان الظلام يغرز أشواكه في جسده و يمتص كل قطرة تتطاير من روحه، حتى صار قلبه كزورق مطاط قد حاصرته أمواج عاصفة بعدما تفشت فيه الثقوب، ركضت أصابعه في جيبه لعلها تلتقي بقداحة أو علبة ثقاب فيداوي الرمد الذي يحتل بصره، فلم يجد غير حقنة صديقه المريض الذي يتمايل على حافة الموت، فزادت الريح من وحشيتها و تعطش الظلام أكثر فصار يشرب هذا المسكين، و كانقطاع الشريط السينمائي في ذروة الحدث طفا وهج صغير، فأخذ يقترب منه فإذا هو فانوس صدىء لا يرش إلا نورًا قليلًا على المكان حتى إذا كاد أن يلمسه ذاب كأن شيئًا لم يكن!

و بينما تحاول صنارات عينيه أن تصطاد سمكة من الضوء لم تلتقط إلا شمعة في كف طفلة يكاد السواد يطلي جميع أبعادها، كانت تبكي كأن كل دمعة تقضم ركنًا في القلب وهي تصرخ:

-أغيثوني، أغيثوني أمي تحتضر، فهرول إليها يود لو أن المسافة التي تفصل بينهما تختفي في غمضة عين، يمضي و عيناه مسمرتان على وجهها المبهم الملامح و أذناه تغرقان في صوتها العاصر، فكأن الجزء المتبقى من روحه قد احتضنها قبل وصول الجسد، حتى إذا كاد أن يتلقفها بيديه كبَحه بعض الخوف الذي يخالطه دفعة الواجب فكان يجبر قدميه اللتين تريدان التقهقر على المضي قدما نحوها،

و بينما كان محرك ساقيْه بين الجموح و التوقف بدا وجه الطفلة ينشع غبارًا و بدت عيناها لا توحيان بالبراءة مثل ردائها البالي، فقال في سره:

- ربما تهيبتْ مني فتجمدت فيها صورة الأطفال، وكمن يحاول أن يضم وردة وهو يحذر من أشواكها كان يزيح عنها بعضًا من أثقال روعتها فيسألها:

- ماذا هناك يا صغيرتي اهدئي ؟

فعاد الشلال على خديها ينصب ثانية و أشارت بإصبعها الذي يقاوم الهبوط، فلما تدلت على وجهه ملامح الريبة انفجرت من فمها تمتمات كأنها هلوسات الحمَّى فلم يفقه إلا أن لا أحد في المنزل إلا والدتها، فتعلقت يدها في ثوبه تشده معها و صار يمشي ويحتار: هل أتركها و شأنها أم أكمل؟

فصار كالذي أوغل في طريق قد اختاره فلم يلمح فيه سوى المجهول فيظل يفكر هل كان من الأفضل أن يختار الطريق الأخر؟

فمضى معها يحس أن رائحة الموت تفوح من شعرها و كأن الأرض موحلة تأكل حذائه فلا تكاد تتركه، حتى وصل إلى منزل كأن لعنة تقبع داخله و كأن الغموض يحرسه و الباب شاحب كأن الضوء يحاول الهرب من تحت عاقبه إلى الخارج، وما كادت أناملها أن تلمس الباب حتى اخترق سمعه صوت مبحوح يقول : - إياك أن تدخل إنها قاتلة إن دخلت فلن تخرج!

وكما يدور شُباك عند فتحه بلكمة قوية التفت وجهه نحو مصدر الصوت فوجده ذاك الوهج الصغير، وكمن لا يعرف النوم من الصحو نظر إليها فابتسمت شفتاها اللتان تنزان دمًا يميل إلى اللون الأسود و صار جسمها يتضخم مثل بالون يمتليء بالهواء، و تعالت ضحكاتها فأصبح كالذي ينظر إلى السياف وهو يقهقه

عندما تمكن من عنقه، حتى إذا همَّ بالفرار صارت يدها المتعلقة به مثل كماشة فالتهمت قطعة من ثوبه، كان يركض وكأن كل ذرة في جسمه مربوطة بخيط يسحبه إلى الخلف فيضع نصب عينيه تجاه الوهج كأن الضوء الذي تتعلق به عيناه حبل النجاة إلى الغريق، فابتعد معه و بينما هما يركضان نمت في صدره بعض الطمأنينة، فنظر في وجه الذي بجانبه فتصلب في موضعه كمن لسعته العقرب، فسأله بصوت يملؤه نيران غضب تلطفها ماء الجميل:

-ألست من جعلني أتشاجر في السيارة التي كنت أستقلها أثناء سفري فطردني السائق منها و أنزلني في ذاك المكان الملعون، فابتسم له بسمة خفيفة كأنها الزبد فوق الماء و مشى بعيدًا عنه حتى اختفى مرة أخرى، وكمن ضل في الصحراء حتى تلاشى كل أمل لديه في الحياة، ثم عثر على واحة فرح عندما وجد نفسه قرب قرية صديقه المريض، وعندما تداوى صديقه هدأ و تناسى ما مر به من الأمس كالمستحم بعد عناء رحلة مرهقة و خلد إلى فراش النوم، فلما اطمئن على المريض و همَّ بالرحيل و بينما يتجاوز بوابة الدار وقعت عينه على ذاك الفانوس الصدىء فأصبح لا يدري لنفسه هل يطئمن أم يقلق؟

فقال الأخ الأصغر لصديقه و هو يشكره و يودعه:

-ما لك تتفرس فيه هكذا؟

فقال بشفتين تخافان أن تنفصلا عن بعضهما فينبجس منهما الأسئلة:

-لمن هذا الفانوس؟

فقال بصوتٍ مشبع بالألم والحسرة:

-إنه لأخينا الأكبر.

فقال و الشوق يكاد يقفز من عينيه:

-و أين هو؟

فقال: مات من سنة!

فقال و الدهشة تأجج في فمه:

-كيف هذا؟

فقال و الكلمات تمزق شفتيه و أنفاسه:

ذهب ليلًا ليبحث عن حقنة أخي في البلدان المجاورة، فلم يرجع وعندما بحثنا عنه وجدناه مذبوحًا قرب منزل مهجور لا يبتعد كثيرًا من قريتنا.

فترحم عليه و ودعه يعانقه و هو تنهال عليه أمطار من الأسئلة الحيرى، و بينما كان في طريق العودة و هو يحدق من نافذة السيارة التي يلتصق بها خده و التفكير يدغدغ رأسه صار كمن يصفعه البحر و هو مستلقي على الشاطىء فيصحو من غفوته، رأى السيارة التي كان يستقلها البارحة فلم تذهب منها بعض العلامات المحفورة في ذاكرته و هي ملقاة جانبًا تكاد أن تكون منسحقة، فسأل السائق بصوت الذي تغمره الأحزان فلا يكترث للمزيد من الأسى:

-ماذا حل بهذه السيارة ؟

فقال: حاول أن يختصر الطريق فاتخذ الطرق الجانبية التي تموت فيها المصابيح؛ فاصطدمت السيارة بينما كانت تعود إلى الطريق السريع مرة أخرى فلم ينج منهم أحد، فنزلت هذه الكلمات على سمعه مثل مطرقة تهوي على الزجاج فأحس بأنه لا يعرف هويته و بأن لا شيء حوله إلا هواءٍ باهت يحتك بخده و السيارة تسرع.